

# الجبروت

## والبرجوازية الصغيرة

د. محمود متولى

ومن ثم كان الانتاج للاستهلاك فقط والاستهلاك الكفائى بصفة أساسية . ولكن رغم كل ماسبق ... ورغم العلاقة السطحية التى كانت تربط السلطة العثمانية بالمصريين والتى لم تخرج عن علاقة جمع الضرائب ليس الا .. رغم كل ذلك فقد خرجت نماذج من المصريين مثل مايمكن تجاوزا أن نطلق عليه اسم البورجوازية المصرية ولكن لم تتح لها فرصة الحركة طويلا ذلك ان نظام محمد على الاحتكارى ورأسمالية الدولة التى قادها قضت على بذور وارهاسات تطلعات الطبقة البورجوازية المصرية فى ذلك الوقت والتى تقسم محورا ثلاثيا هم المشايخ والأعيان والتجار . والتجار .

وقد جاء فى كتابات الجبروتى وغيره من المعاصرين - فيما بعد - الكثير عن طبقة المساكين والأعيان وكبار القوم وهذه الدراسة مجرد محاولة للاستقراء

مما لاشك فيه أننا نخرج على النطاق التاريخى والموضوعية التحليلية عندما نفترض وجود بورجوازية مصرية فى عصر الجبروتى ذلك أن فكرة الطبقة الوسطى - المصرية - وهى الترجمة الفنية لكلمة البرجوازية كانت لا توجد قط فى ظروف مجتمع متخلف تخلفا عقليا واجتماعيا واقتصاديا معزول عن التيارات المعينة به .

ولقد ساهمت عوامل اقتصادية فى تحطيم عملية نمو ونشأة بورجوازية مصرية ... ومن ذلك سيطرة المالك على المقدرات الاقتصادية لمصر والتى وصل بها الى حد الانهيار الاقتصادى بعد كشف رأس الرجاء الصالح وتحول طرق التجارة التقليدية الى مراكز أخرى ومنها أيضا عزلة مصر الاقتصادية وغياب السلطة القيادية على التوجيه الوطنى للاقتصاد القومى . وكان الاقتصاد المصرى فى حالة سكون Static Economy

التاريخى للبورجوازية المصرية كما تمثلت في كتابات الجبرتي مع الوضع في الاعتبار أنها لن تقتصر على البورجوازية بمعناها التقليدى أى طبقة وسطى بل بما صار الأمر عليه وهو الطبقة المالكة اقتصاديا لوسائل الانتاج بل وسوف نحاول ان نضفي فكريا فوق ذلك بتجليل عناصر البورجوازية ليس فقط في أنها طبقة اقتصادية بل طبقة فكرية ايضا .

### الظروف الاجتماعية والاقتصادية لعصر الجبرتي :

من كتابات الجبرتي يتضح أنه أشاد فيها بالدولة العثمانية من أول وهلة ونحن الباحث المدقق يدرك أن الجبرتي في واقع الأمر كان يكره الاساليب العثمانية في الحكم وأنه ان كان قد جامل « يوسف باشا » المصدر الأعظم لأنه كان تحت تغدير أن العثمانيين هم الذين طردوا « (الفرنسيين) » من مصر وكان الجبرتي يحقنر الممالك ويمقت تصرفاتهم في الحكم والادارة .. وكثيرا ماكان يرثى لاحوال المصريين ويحاول الدفاع عن العامة وان كان لايمنع ذلك أنه أيضا كان يسخر من الرعاع ومن سذاجتهم . وان كان الجبرتي قد أعجب بالفرنسيين الا أنه أيضا سماهم الكفرة ولم يصل حد اعجابه قط الى درجة ان ينسى مساوئهم وبعض ما اتوه من افعال سيئة خلال حكمهم مصر في مدة ثلاث سنوات وواحد وعشرين يوما .

ولاشك أن الجبرتي قد تأثر لاضهاد المصريين والغاء ذواتهم وعدم الاكتراث لوجودهم ومع ذلك فان الجبرتي كان يمثل صورة من التعالى سواء الفكرى أو الطبقي ومن هنا يمكن اعتبار الجبرتي نفسه بورجوازيا تمثلت فيه الزاويتان البورجوازية الفكرية والبورجوازية الاقتصادية . كيف لا ... وقد كان من أسرة اشتهرت بالعلم والوجاهة وعرفها المستقلون بالدنيا والدين .

أى أن الجبرتي كان بورجوازيا ولكنه غير مستقل ومتعاطف وان كان يستتكف بعنص تصرفات الرعاع الا أن ذلك لم يكن يمنعه من الدفاع عنهم أمام ظلم الحكام وجبرونه في كتاباته .

ومع ان تاريخ الجبرتي به مادة لا بأس بها بالنسبة للطوائف الاخرى كالتجار واصحاب الحرف واهل اللمة الا ان تصويره يتركز سواء في تاريخه أو في تراجمه على مجتمع العلماء والمجتمع المملوكى .

ونرى الجبرتي في عجائب الآثار يعمل على حكم البكوات الممالك أولا وعلى الحكم الفرنسى ثانيا وعلى الحكم العثمانى الذى أعقب خروج الفرنسيين ثالثا ، ليس هذا فقط بل انه يعتبر أن الحكم العثمانى أشد وطأة من حكم البكوات الممالك ، ومن هنا كانت نظرة الجبرتي المتشائمة من تطورات الاحداث في مصر ومانلمسه من أن رأيه في النهاية كان يعنى أن الاحوال في مصر تسير من سييء الى أسوأ .

ويمكننا أن نلخص الظروف الاجتماعية والاقتصادية لعصر الجبرتي : -

أنه مع بداية القرن ال ١٦ كانت مصر قد فقدت مركزها بصفتها ممرا ووسيطا للتجارة الدولية وأدى ذلك لضياع مكاسبها وتدهور وضعها المالى وانتهى الأمر بها الى عزلة اقتصادية وفكرية عن بقية العالم ، ولم تلبث تلك الحالة أن ازدادت جمودا ورتودا

بسبب الفتح العثماني سنة ١٥١٧ والذي كان من أهم مظاهره إهمال العدل وطرق النقل تبعه تدهور التجارة كما أدى أيضا إلى إهمال الصحة والتعليم وبقية المرافق العامة وبخاصة الري والصرف مما أدى إلى تدهور الزراعة وساعد على هذا أيضا زيادة الأعباء الضريبية على الفلاحين واستغلال الملتزمين لهم . وقد ترتب على ذلك ضعف المحصول وانتشار الجاعات في بعض السنوات كما أسهم ذلك في تدهور المبادلات الخارجية فقد اقتصر الصادرات على عدد محدود من المنتجات مثل الأرز والقمح والقطن والكتان .

وقد عمدت الرأسمالية التجارية الأوروبية في القرن الـ ١٨ إلى محاولة إعادة النشاط التجاري إلى البحر الأحمر ، فقد عقدت لذلك شركة الهند الشرقية (البريطانية) في سنة ١٧٧٥ معاهدة مع محمد بك أبو الذهب بفرض فتح ميناء السويس أمام التجارة الإنجليزية القادمة من الهند وبفرض إعطاء بعض الامتيازات للتجار الانجليز كما تمكنت فرنسا من عقد معاهدة مشابهة مع أمراء الماليك واشتدت المنافسة بين إنجلترا وفرنسا في هذا المجال حتى تمكنت إنجلترا سنة ١٧٩٢ من إلغاء المعاهدة الفرنسية ومن عقد معاهدة بريطانية شبيهة بمعاهدتها السابق عقدها سنة ١٧٧٥ غير أن محاولات الدولتين لبسط نفوذهما التجاري على مصر قد انتهت بالفشل وذلك بسبب تنافسهما وبسبب معارضة السلطان العثماني وعدم احترام أمراء الماليك لهذه المعاهدات . وهكذا تدهورت الأحوال في مصر العثمانية قبيل قدوم الحملة الفرنسية ويعزى ذلك إلى ثلاثة أسباب رئيسية في نظرنا : -

- ١ - عجز الحكم العثماني الإقطاعي من أن يحدث تغييرا في حياة المجتمع المصري .
- ٢ - أفراد البيوت المملوكية بالسلطة وحروبهم المستمرة وتنازعهم على السلطة .
- ٣ - عزلة مصر من الناحيتين التجارية والحضارية .

ونتيجة لكل ذلك كان السواد الأعظم من السكان يعيش في حالة يرثى لها من الفقر وكان النظام الاقتصادي بسبب الفوضى وتنازع أصحاب العصبية الحربية على السلطة في حالة سكون وكثيرا ما «انقطعت المواصلات بين أجزاء القطر بسبب الحروب والثورات فلا يجد الفاض من حبوب الوجه القبلي طريقه إلى الشمال حيث تعظم الحاجة إليه» .

وما زاد الطين بلة كثرة الضرائب التي أرهقت كاهل القوى المنتجة وكانت طريقة الجباية تثير حفيظة الناس فكثيرا ما اقترن طلب المغارم بالتهديد والوعيد والقضاء القبيح على الكثير من «مسائير الناس والتجار والتسبيبين وحبسهم ومصادرة أموالهم وتكليفهم بأضعااف ما يمكنهم دفعه» .

وتمثلت هذه القوى المنتجة في التجار والصناع في المدن والفلاحين في الريف وكل ذلك أضعف الحوافز للإدخار والاستثمار وعزهم عن تكوين ثروات كبيرة تجد طريقها للاستثمار المنتج وكان ذلك بالطبع سببا في قلة عدد القادرين على انشاء المشروعات وتمويلها .

والواقع الذي يجب أن نعترف به ونؤكد ، كما سبق أن ذكرنا ، أن الصلة الوحيدة بين الشعب المصري وحكامه كانت تقوم على نظام الضرائب وكانت كل فئة تجارا أو زراعا أو صناعا منظمة تنظيميا مستقلا في هيئات مشرعة هي التي عرفت بالطوائف لكل منها قياداتها الخاصة وكان الولاء للطائفة يفوق كل ولاء .

وكانت العلاقة بين المالك والشعب المصرى قائمة على حذر وعدم ثقة وخوف واحتقار متبادل وانعكس ذلك كله على الوضع الاقتصادى والاجتماعى فى مصر وليس أصدق من المربزى فى وصف ذلك الوضع :-

« ... وصارت المالك السلطانية أزدل الناس وأدناهم وأخسهم فدرا وأشجعهم نفسا وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم اعراضا عن الدين ... ما فيهم الا من هو أدنى من قرد والص من فارة وأفسد من ذئب .. لا جرم أن خربت أرض مصر والنشام من حيث يصب النيل الى مجرى الفرات بسوء اباله الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الامر حتى انه ما من شهر الا ويظهر من الخل ما لا يتدارك فرطه» .

وبالنسبة لمجال النشاط الصناعى فى ظل العصر العثمانى فقد تدهورت احوال الصناعة ولم تكن تزيد عن بعض أنواع النسيج والأغذية وبطرق بدائية وعتيقة وركزت كل حرفة فى حى قائم بذاته فهناك أحياء للصناعة الخاصة بالصاغة والسروجية والتحاسين وغيرهم ، وكانت القاهرة وأسيوط أهم مركزين للصناعة وكانت المصانع - ان جاز لنا أن نطلق عليها هذا الاسم - صغيرة الحجم ضعيفة رأس المال قليلة الايدى العاملة حتى أن العمل كان يقتصر فيها على شخص صاحبها أو ينم بمعونة بعض العمال القليلين ولاينفى ذلك أن تلك المصانع كان فيها بعض الكبر الحجم نسبيا وكانت الصناعات غالبا ماتنتج للسوق المحلية القريبة منها وان كان هذا لا يمنع أن بعض المصنوعات بنسبة محدودة جدا كانت تصدر للخارج ، ولكن لصعوبة المواصلات واضطراب الأمن وكثرة التكاليف ، فقدت القدرة على المنافسة . وكان من الصعوبة ظهور الطبقة البورجوازية فى مجال الصناعة المصرية فى ذلك العصر بسبب ضعف القوى الشرائية من ناحية وضيق السوق من ناحية أخرى وفقدان القدرة على الابتكار وعدم وجود مبادئ أو أفكار علمية تمهد لقيام أى تطور صناعى هذا الى جانب اضطراب الأمن وتحول مصر من دول الصف الاول الى دول الصف الثانى وماترتب على ذلك من اضمحلال فى كل مرافقها أدى الى ضعف الصناعة فيها ، فعدم وجود استثمارات والجهل بأساليب التطور الحديثة وماسيطر على الصناعة من نظام حرفى كل ذلك عاق ظروف التطور الطبيعية نحو الرأسمالية التى هى عماد البرجوازية . كما أن الاوضاع الزراعية كانت لاتساعد على وجود طبقة ورجوازية مصرية لان ملكية الارض كانت بيد الملتزمين وفوق ذلك كان الدخل الزراعى كلية يذهب الى يد الغرباء عن مصر .

ولم يكن هناك مجال لنمو طبقة بورجوازية فى مجال الادارة المصرية ، التى كان المصريون بعيدين عنها ولكن كان هناك مجالان لنمو وتكوين البورجوازية المصرية وهما مجال العلماء ومجال التجارة .

فقد كان التجار يسهمون فى تمويل الصناعات وظهر فى صناعة النسيج نظام تمويل الصناعة يشبه نظام Merchant Employees الذى كان قائما فى أوروبا ، حيث كان تجار العاصمة يقومون بتوزيع القطن على النساء الغزالات فى القرى والمدن لفرزله فى منازلهن فى وقت الفراغ ومن ثم ترسل خيوط الغزل الى النساكين والى المصانع تحت اشراف التجار ، وبالمثل اعتاد تجار دمياط استيراد الحرير الخام من بلاد الشام وتمويل المشتغلين بفرله ونسجه ، وتخصص بعض التجار فى تمويل صناعات أخرى مثل الحصر فى قرى الريف . وتمويل التجار يشبه تماما تلك المصانع الصغيرة التى تحولت الى

المصانع الكبيرة ولكن ذلك لم يأت لمصر بسبب بقاء طرق الانتاج دون تطوير وقلة المدخرات وضعف الاستثمارات وعدم وجود أفكار علمية للتغيير المطلوب ، كل ذلك يضاف اليه فساد النظام الحاكم .

ورغم أن الحياة سواء في الريف أو المدن لم تكن تشجع حركة التبادل التجارى حيث كانت تقوم هذه الحياة في القرى على مبدأ الاكتفاء الذاتى الى حد كبير ، وفي المدن كان انخفاض الأجور وهبوط مستوى المعيشة سببا في ركود حالة التجارة لكن ذلك لم يمنع من وجود نوع من التبادل بين القرية والمدينة وتيسير ذلك كان لكل بلدة سوقها فظهرت بعض المدن التى اكتسبت مزايا خاصة في مجال التجارة الداخلية نظرا لموقعها وشهرتها في انتاج سلعة معينة ولكونها مراكز ذات صفة زينية كطنطا ، ودسوق .

وقبيل الحملة الفرنسية وصلت التجارة الداخلية الى حالة من الفوضى والكساد ولعل ذلك نتيجة لعدة أسباب تراكمت ولكن أهمها عدم استتباب الامن وانتشار عصابات الطرق والفتن وكثرة الرسوم الداخلية المفروضة على المتاجر (مثل الدخولية - وعوائد النهر) مما رفع أسعار السلع ، هذا الى جانب انحطاط القوى الشرائية لجمهور المستهلكين وفوضى النقد - الذى كان معروفا بصورة متواضعة - وكثرة تغير النقود وغشها مما أساء الى عملية البيع والشراء .

أما بالنسبة للتجارة الخارجية فقد كانت كنتيجة طبيعية للتدهور في الصناعة والانحطاط في الانتاج الزراعى في حالة يرثى لها لعدم وجود فائض للتبادل مع العالم الخارجى .

ولكن وجدت طائفة من التجار المصريين - رغم هذه الظروف - الذين جمعوا ثروات ضخمة من تجارتهم الواسعة واتصالاتهم بالدول التى تحيط بمصر تجاريا .

وفيما يلى تحليل للبورجوازية المصرية ومجالات تكوينها نبدأها بالمجال التجارى .

### البورجوازية المصرية التجارية في عصر الجبرتي :

قلنا ان البورجوازية المصرية انعدم تشكيلها في مجال الزراعة وايضا في مجال الصناعة ولكن نمت بورجوازية مصرية في المجال التجارى ونذكر أهم ملامحها في السمات التالية وهى نفس السمات التى تشترك معها بقية فروع البورجوازية المصرية الأخرى والتى سيأتى ذكرها تباعا :

١ - انها كانت قادرة ليس فقط على جمع ثروات كبيرة بل وايضا على اقامة علاقات تجارية مع الاقطار المجاورة .

٢ - ان نشاطها التجارى كان متعدد فلم يكن لها فرع واحد تتخصص فيه .

٣ - ان مجال عملها كان الوساطة بصفة أساسية بمعنى انها كانت تقوم بعملية تخزين ونقل لسلع واردة من الخارج ثم يعاد تصدير معظمها او يوزع جزء منها في السوق الداخلى ، وكان السوق الداخلى بالنسبة لها يتركز في طبقة الحكم والادارة .

٤ - انها كانت تملك الكثير من الوكالات في المدن المصرية والوكالات خارج مصر وانها ملكت القدرة على تجهيز حملات حربية (كما حدث بالنسبة للمحروقي مع محمد علي) .

٥ - أنه رغم تعرض الكثير منها للازمات الاقتصادية والمصادرات الا أن الكثير منها كان قادرا على النهوض من كبوته ، وكان هناك الكثير من التضامن والتكافل بين أفراد هذه الطبقة .

٦ - أن هذه الطبقة رغم غياب عنصرى الاقتصاد الرئيسيين وهما الزراعة والصناعة - مما يجعل من المستحيل استمرار القطاع التجارى - الا أنها استمرت حتى مجيء نظام (محمد على) مما يؤكد قدرات هذه الطبقة وامكانياتها وذكاءها .

٧ - أن هذه الطبقة كانت على علاقة طيبة بالسلطة تمثل ذلك في علاقتها بالإدارة العثمانية أو المملوكية أو حتى الحملة الفرنسية .

٨ - كانت هذه الطبقة البورجوازية بعيدة عن اسنفلال العامة ويمكن أن تؤكد أنها فعلا كانت في تصرفاتها وطنية فكثرا ما قادت التحرك الوطنى وتزعمت ثورات مصرية صميمة .

٩ - حاولت الطبقة البورجوازية التشبه بالطبقة التركية والمملوكية الحاكمة في كثير من تصرفاتها وسلوكها .

١٠ - كان هناك تعاطف اسلامى وتكافل اجتماعى بين الطبقة البورجوازية غطاءه العامل الدينى ، ولذا لم تحقد طبقة العامة على غنى الطبقة البورجوازية طالما كانت الطبقة الاخيرة واعية لدورها الوطنى والاجتماعى .

١١ - كانت البورجوازية المصرية التجارية متمثلة فى عائلات فلم تكن الصورة فردية بل كان أبناء التجار يتوارثون نفس المهنة التجارية عن آباؤهم مثل عائلة المحرقى (أحمد المحرقى ثم ولده محمد) وعائلة الشرايين وعائلة محرم .

١٢ - كانت هذه الطبقة البورجوازية طبقة مثقفة حريصة على العلم جنباً الى جنب مع الفنى والجاه فلم يخل منزل بورجوازى مصرى من وجود مكتبة عامرة نفيسة مليئة بالكتب النادرة ولا يمنع عنها مطلع أو قاصد .

### نماذج من البورجوازية المصرية التجارية :

جاء فى الجبرتي الكثير من الكلام عن «مسائر الناس» والاعيان وكبار القوم فذكر تراجم لعدة شخصيات مصرية ولا يتسع المقام لذكر الكثير منها ومن ثم سنمر عليها الا أننا سنهتم ببعض من هذه الشخصيات البورجوازية والتي لها تأثير كبير أو عمرت طويلا .

ومن أفراد هذه الطبقة البورجوازية التجارية نذكر مثلاً «الخواجات جمال الدين الذهبى» شهندر التجار والذي ورد ذكره بأن له الكثير من الوكالات والمنازل وعلى قدر كبير من الثروة والجاه ، وقد جاء فى احدى وثائق المحكمة الشرعية انه اشترى منزل الشيخ حسن الجبرتي أفندى والد المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتي فى الصناديقية ، وهناك حسين الدالى ابراهيم وهو تاجر من تجار خان الخليلى ، وقد غضب عليه الوالى فامر بسجنه ولكن تشفع له الشيخ أبو الأنوار السادات فاطلق سراحه بعد دفع فدية كبيرة . ونذكر أيضاً مصطفى عبد الله التاجر فى رشيد والذي استضاف الألفى بك الكبير عند رجوعه من لندن مما يؤكد انه كان ذا جاه وثروة وعلى قدر كبير من الفنى .

وهناك الخواجا محمود حسن التاجر والذي كان يملك ذهبيات وله وكالات وقد كان على علاقة طيبة بالالفي الكبير وساعده بمده ببعض المراكب في النيل عند عودته من لندن لاستعادة مكانته بعد تدبير مؤامرة ضده لقتله .

ونذكر الحاج مصطفى البشتيل ويرجع أصله الى قرية « بشتيل » بجوار امبابه ، وكان يعمل في تجارة الزيت وله وكالات ضخمة في معظم المديرية وبالذات الاسكندرية وقد كان ضمن من قادوا ثورة القاهرة الثانية ومعه السيد عمر مكرم والسيد أحمد المحرقى وقد انتهت هذه الثورة بالفشل حيث قتل البشتيلي وهرب المحرقى - كبير التجار الى سوريا - وصادر الفرنسيون أموالهم .

وكانت هناك عائلات بورجوازية كبيرة في مجال التجارة نذكر منها «عائلة الشرايبي» وأشهرها في ذلك العصر الخواجا (الحاج) أحمد بن محمد الشرايبي الذي كان من أعيان القاهرة ، فقد كان من بيت مجد وثراء بلغ الغاية في ثروته وجاهه وسماحته وكان له بيت مشهور في الأزبكية وكان من هذه العائلة يوسف الشرايبي وقد كان في غاية الثراء والرفاهية .. والاحسان للخاصة والعامة ويتردد الى منزله العلماء والفضلاء . وكان أمراء مصر وبخاصة الأمير رضوان كنخدا من زوار هذا السيد وكذلك أدباء مصر وشعراؤها وقد مات هذا السيد عام ١١٧١ هـ .

وهناك عائلة «محرم» ومنها «أحمد محمود محرم» وقد اختاره بونابرت ضمن الديوان الخصوصى وكان يعمل في وظيفة المحتسب وكانت له علاقات تجارية ولديه ثروة ضخمة وقد توارث ابناءؤه مهنته .

وكان هناك حسن طوبار من المنزلة وقد ملك أسطولا كبيرا من مراكب الصيد قدر بحوالى ٥٠٠ مركب زد على ذلك عددا لا بأس به من مصانع لنسج القطن ومن المتاجر وكانت له ضياع ضخمة في المنزلة ، وهذه الثروة الكبيرة كان يحسب لها حساب لدرجة أن الفرنسيين كانوا يخشون بأسه لعظم نفوذه في منطقته ، ومن أشهر تجار تلك الفترة ايضا الشيخ مصطفى الصيرفي ، وكانت له تجارة مع السعودية واليمن (أى بلاد العرب) وكان من أشهر تجار وكالة الصابون السيد «أحمد الزرو» حيث كانت له ديون على التجار بلغت ١٠ آلاف ريال ، ومن المهم أن ندرك أنه كثيرا ماقامت صفقات مشتركة بين هؤلاء التجار ، فالجبرتي يحدثنا أنه في ٥ من جمادى الاولى سنة ١٢١٥ هـ تحاسب السيد أحمد المحرقى مع السيد أحمد الزرو على شركة بينهما .

ويجب أن نذكر شهيد تجار «أحمد بن عبد السلام» فقد كان له باع طويل في العمل التجارى . ولعل عائلة المحرقى مثلا نادرا للأسرات المصرية الحاكمة من التجار وكان عميدها السيد أحمد المحرقى والذي زاد نفوذه باتساع تجارته مع مختلف الاقطار الشرقية والأوربية وقد تعامل مع جميع تجار مصر ونواحيها وجميع الأمصار الإسلامية وذاع صيته بين الاقطار الحجازية والسورية والرومية فراسلوه وخلفوا عنده ودانهم وكان محبوبا من الجميع ، وقد ضاقت بأحماله وبضائمه الطرقات .

### البورجوازية المصرية الفكرية ذات الرخاء الاقتصادى :

لم نجد خيرا من ذلك العنوان لنطلقه على طائفة العلماء التى عاشت في مصر عصر الجبرنى والتي شاركت في الحياة الاجتماعية وامتنت الى جانب عملها كعلماء مهنا أخرى

درت عليها ثروات طائلة - باستثناء أساتذة الأروقة في الأزهر - تجعلنا نضمها بلا تردد ضمن طبقة البورجوازية المصرية وهى وان كانت بأفكارها أيضا تمثل نوعا من التمسك بالطبقي إلا أنه من الأكيد أنها بشرائها ودخلها الكبير كانت تتمتع برخاء اقتصادى لم يمنح لغيرها حتى ولا لطبقة التجار نفسها - قمة البورجوازية المصرية في ذلك العصر - ولعل ذلك يرجع بصفة أساسية الى علاقة هذه الطبقة بالسلطة وفي نفس الوقت الى خوف السلطة منها واستخدام السلطة لها لتكون وسيطا يقيها «شر» ثورات العامة ، وايضا لعدم مصادرة السلطة لثرواتها - عكس طبقة التجار والتي كانت تتعرض باستمرار لعملية المصادرة - التراكم ولوقف الكثير من الدخول عليها وبالذات من دخول الأرض في نفس الوقت الذى لم تكن تحصل فيه ضريبة على دخلها .

ولم تكن هذه الطبقة وهى طبقة العلماء بمالها الخاص وغناها بعيدة عن الواقع الاجتماعى ، فكثير منها كان واسطة بين الرعية والحكام ولكن الكثير أيضا كان يحتقر تصرفات العامة وان كان لا يعلن ذلك حتى يتقى غضبها وان كان العلماء يتمتعون باحترام الشعب إلا أن البعض منهم لم يسلم من أذاه لتحيز العلماء في بعض الأحيان لرجال السلطة وظهر ذلك واضحا بعد قدوم الحملة الفرنسية .

وقبل أن نذكر نماذجاً للعلماء وثرواتهم ومهنتهم يحسن بنا أن نتكلم عن مصادر أرزاقهم خارج قناة التجارة ، فقد كان السلطان العثماني يهدى رجال الأزهر الكثير من الهدايا أو يأمر بمرتبات تصرف من «الضربخانة» وكان يجارى السلطان العثماني في ذلك سلطان المغرب ، وقد بقى نظام الأوقاف محبوبا على معاهد التعليم والعلماء وكانت ترصد لهم أوقاف معينة بل لقد كان بعض الأمراء والماليك يحرصون على حضور دروس العلماء في المجالس الخاصة وفي المدارس وكثيرا ما كانوا ينعمون على العلماء المنح والهدايا من وقت الى آخر . وسنحاول أن نذكر البعض من العلماء وأن كنا سوف نسلط الضوء على البعض الآخر لأهميته .

وقد تركزت طبقة العلماء في علماء الأزهر بصفة أساسية والكثير من العلماء كان يمارس الأعمال التجارية أما باسمهم أو بأسماء زوجاتهم أو أقاربهم نذكر من هؤلاء الشيخ يوسف المصليحي والشيخ اسماعيل البراوى والشيخ محمد الجوهري والشيخ عبدالوهاب الشبراوى ، وهناك الشيخ محمد المهدي الذي كان سكرتير الديوان الذى أنشأه بونابرتة وقد أقام وليمة عرس لزواج أحد أولاده ودعا صارى عسكر الفرنسيات وأعيان الفرنسيين لهذا العرس وكبار أعيان المحروسة ومدت الموائد وأقيمت الولائم أكثر من ثلاثة أيام مما يدل على الوفرة والرخاء .

والشيخ محمد المهدي هذا قال عنه بونابرتة وعن زميله الشيخ الصاوى أنهما ليسا «بونو» يعنى ماهم طيبين ، والشيخ محمود الكردي الذى كان محسنا على الفقراء والمساكين والذى قيل عنه أنه «أما مسك بيده درهما ولا دينار قط» وقد لحق بربه عام 1195 هـ .

والشيخ على البيومي الذى كان ذا واردات وفيوضات وألف عدة كتب وكان من زواره مصطفى باشا من قبل السلطة العثمانية ، والشيخ عبد الله الإدكاوى من أدكو وكان له ثروة ضخمة وكان محسنا كبيرا وكثيرا ما كان يقرض الشعر . وهناك الشيخ موسى السرسى والشيخ يوسف الشبراخيتى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ عبد الفتاح



الجوهري وكانت لكل منهم اوقاف كبيرة ، ولهم دراية وخبرة في شئون التجارة التي كان يمارسها اقرباؤهم .

ويمكن أن نصيف الى هؤلاء اسماعيل الخشاب والذي كان أحد مشايخ الازهرين الى جانب أنه كان شاعرا رقيقا وقد توثقت الصحبة بينه وبين الجبرتي وقد عهد الفرنسيون الى الخشاب بتحرير مواد الصحيفة اليومية التي أصدروها والتي عرفت باسم «التنبيه» وكان اسماعيل الخشاب هو الذي قدم الجبرتي الى الفرنسيين وجعله قادرا على التواجد بقربهم لدراسة الكثير من احوالهم مما سهل على الجبرتي الكتابة عنهم .

وايضا هناك الشيخ حسن العطار والذي كانت تربطه علاقات اخاء مع عبد الرحمن الجبرتي أيضا ، واشتهر منهم أيضا الشيخ الحفني الذي كان يعاصر على بك الكبير وهو محمد ابن سالم الحفني وكان زاهدا ورعا كريما كثير البذل للفقراء واتخذ سبيل الدعوة الى الخير على طريقة صوفية اسمها الطريقة «الخلوتية» .

وقد قال عنه الجبرتي «انه كان قطب رحي الديار المصرية لا يتم أمر من أمور الدولة الا باطلاعه ومشورته» ولا توفي الشيخ الحفني حل محله في زعامته واعظ آخر وهو «ابن النقيب السيد على بن موسى» .

وهناك الشيخ على الصعدي وكن يندخل لصالح الناس وبلغ من اكرام على بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب أنهما كانا اذا دخل الشيخ على الصعدي عليهما مسحا له وقبلا يده ولم يردا له شفاعا ، ومنهم السيد محمد السادات سليل بيت السادات العريق ، الذي جمع بين العلم وشرف النسب فضلا عما ورثه عن أسلافه من الثروة والجاه وقد تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجاداتهم على عهد على بك الكبير وكان نافذ الكلمة عظيم المكانة بين الناس سواء قبل الحملة الفرنسية أو خلالها أو بعد انتهائها .

واختير الشيخ عبد الله الشراوى رئيسا للديوان الذي كونه بونابرت ، وفي سنة ١٢٠٨ هـ تولى مشيخة الازهر فعضمت مكانته وكان أمراء المالك يحترمونه ويخشونه وله في مقاومة مظالمهم مواقف ماثورة تدل على مبلغ ما له من النفوذ والجاه فقد قاد الحركة التي قامت لمناهضة المالك في تعسفهم في فرض الضرائب والمكوس وغير ذلك من المظالم ، وقد جمع بين رئاسة الديوان ومشيخة الازهر وكان له مع الفرنسيين شأن كبير فقد غضبوا عليه ثلاث مرات ، الاولى في عهد بونابرت حينما رفض أن يردى شارة الجمهورية الفرنسية ورمى بها الى الارض فغضب عليه بونابرت وقال أنه لا يصاح لرئاسة الديوان ، والثانية في عهد ميتر حيث ارتابوا في موقفه بعد مقتل كليبر لان القتال كان يقيم في الازهر والثالثة في عهد مينو أيضا حيث اعتقله في القلعة عندما وردت الاخبار بقدوم الجيش العثماني بقيادة يوسف باشا واحتلاله العرش .

وكان العالم بمجرد أن يجمع ثروة كافية يستثمرها في عقارات مدنية وهذه العقارات الثابتة كانت بشكل عام الصورة للاستثمار حيث كان يمثل في البداية المسكن الخاص ثم تطور الأمر فاصبح هناك حوانيت متنوعة الأحجام لبيع السلع المصنوعة بدلا من الأماكن التي كانت تصاغ فيها وكانوا يتاجرون على المستوى الداخلي في المواد الغذائية وعلى المستوى الخارجي في استيراد البن مثلا وكان هذا أعلى درجات الاستثمار اذ انها كانت تتطلب قدرا من رأس المال وضلات وثيقة بالتجار .

ولو بحثنا عن مصدر الثروة الأساسية للعلماء لوجدناه في الأوقاف وفي أيادي الرزقة التي كانت تعطى لهم من السلطات الحاكمة دون أن يدفعوا عنها مالا ومن كونهم واسطة لقضاء حاجات الناس وكان كثير من العلماء يعتمدون على أمراء الممالك لأعالتهم وكان أمراء الممالك يعتمدون على العلماء كصلة بينهم وبين الأهالي ولم تتم صور استقلالهم واستثماراتهم في المجال التجارى الا في نطاق محدود ، ذلك أنهم كانوا بعيدين عن المعامرة في مشروعات اقتصادية غير الأرض أو العقار أو التجارة المربحة نتيجة سرعة دوران رأس المال والمضمون عنصر المخاطرة فيها .

ولقد وصلت قوة طبقة العلماء الى حد أنهم كانوا يتدخلون لانقاذ أولاد الأمراء المالكين ونساءهم من بيدهم كجوارى ، وقد وصلت قوة السيد عمر مكرم الى حد أن محمد على باشا عينه نائباً عنه وكانت مدينة دمنهور في التزامه . بقى أن نتكلم عن نقابة الإشراف كقوة من العلماء وسوف نذكر منهم فقط اثنين الأول هو السيد عمر مكرم والذي خلفه وهو الشيخ خليل البكرى .

أما عن السيد عمر مكرم فقد كان نقيب الإشراف عند مجيء الحملة ، ونقابة الإشراف مركز اجتماعى ودينى واقتصادى يرصد للمسئول عنه الكثير من الأوقاف وله الكثير من الرواتب والهدايا ويحوز احترام العامة والخاصة ، وقد غادر مصر الى سوريا عقب موقعة الاهرام فخلت بذلك نقابة الإشراف من النقيب وعين الفرنسيون بدلا منه السيد خليل البكرى ، وكان أول ظهور عمر مكرم على مسرح السياسة المصرية حينما حمل الى حسن باشا القبطان - القائد العثماني - كتابا من الممالك في أسبوط بعد أن هزموا اتباع حسن باشا وكان ذلك بواسطة الصنح بينهم وبين حسن باشا ، وقد خرج السيد عمر مكرم مع الجيش التركى وجيوش الممالك عند انسحابها من مصر بعد هزيمتها وشارك في ثورة القاهرة الثانية ولكنه فر بعد فشلها ، وقضى في نقابة الإشراف في دولة ابراهيم ومрад نحو خمس سنوات .

أما عن مدى اشتغال زوجات العلماء وأقاربهم بالتجارة فاننا نذكر أن زوجة الشيخ الشراقوى كانت تدبر أمواله وتستثمرها له فقد اشترت عقارات وبيوتاً للتأجير ومنزلاً للسكن بالإضافة الى حوانيت ووكالات وحمامات . أما زوجة الشيخ المهدي فقد استثمرت أمواله في تجارة القطن والأرز والكتان .

وعائلة البكرى كانت لها باع طويل في التجارة والصناعة فقد كانت تملك معمل تقطير لصناعة الخل وحانوتا مخصصا لصناعة الزيت وحانوتا لطحن البن وعدة مخابز ومقاه وبعض متاجر لبيع الفلال ، وكان الشيخ محمد البكرى على صلات تجارية مع تجار التجزئة والجملة وقبل أن يموت الشيخ البكرى ترك لورثته (والذين لم يكونوا بالضرورة شيوخا) ثروة ذات حجم كبير وعدد من الحوانيت والوكالات والحمامات بالإضافة الى منقولات وعقارات ثابتة ومجوهرات .

### الجبرتي كنموذج للبورجوازية المصرية فكريا واقتصاديا :

من تتبع كتابات الجبرتي في الكتابين اللذين سطرهما بقلمه وهما «مظهر النقد» و «زوال دولة الفرنسيين» و «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» وان كان الثانى قد ضم في طياته الكتاب الأول في الجزء الثالث من تاريخه العام نخرج بتعليقات كثيرة عنه ولقد

كتب الجبرتي ترجمة لآبيه وأطال فيها وبألف في ديباجة ألقابه ومرادفات تشريفه حتى بلغت أكثر من ٦٠ لقبا ، والجبرتي مصري لاشك في ذلك وإن كانت أصوله السلالية ترجع الى بلاد زيلع بارض الحبشة إلا أن استقرار عائلته في مصر لفترة طويلة وحبه لمصر جعله مصريا لاشك في ذلك .

ومع اشتغال والده بالعلم فإنه كان يعمل في التجارة أيضا وتلك هي سنة علماء مصر في القرن الـ ١٨ كله تقريبا حيث أن العالم كان لا يكتفى بدخله من راتبه أو وقفه الموقوف له من قيامه بالتدريس والتعليم ومن ثم نجد معظم علماء ذلك العصر يقومون بامتهان مهن أخرى خاصة وأن الظروف الخاصة للعلماء والتي كانت تجعل السلطة تنفرب لهم - تتضمن عن طريقهم السيطرة على العامة - كانت تمنعها من مصادرة أموال العلماء أو الاستيلاء على أملاكهم أسوة بما كان يمكن أن تفاجأ به طبقة التجار .

فالشيوخ حسن الجبرتي والد عبد الرحمن مؤرخنا العظيم ، كان يعمل في التجارة والبيع والشراء والمشاركة والمضاربة والمفاوضة . وكان الشيخ حسن له صهر من الأتراك يعمل واليا على فلاح الطور والسويس والمويلح ، فلما مات سنة ١١٣٧هـ تقلد أعماله وحل في وظيفته ولبت بها فترة من الزمن ، وكان للشيخ حسن ثلاثة منازل في كل منزل جوارى من البيض والسود والجيش ولما مات أبوه في عام ١١٨٨ هـ كان عبد الرحمن في الـ ٢١ وقد ورث كل تلك الثروة وذلك الجاه عن أبيه ، فالجبرتي إذن كان بورجوازيا في الدائرة الاقتصادية بحكم المولد وما كان يملك من ثروة ضخمة ووكالات وحوانيت ومنازل وتجارة ورثها عن أبيه . وكان الجبرتي ذكيا جدا حيث يقال أنه حفظ القرآن وسنه لاستجاوز الحادية عشرة وقد زوجه أبوه وهو في سن الرابعة عشر .

وكان لعبد الرحمن أرض زراعية موروثة في بلدة إبيار فكان يتردد عليها ويأشر شئونها ، ولما أتت الحملة الفرنسية ترك القاهرة الى أرضه ولكنه عاد إليها بناء على دعوة صديقه اسماعيل الخشاب .

وعلى الرغم من الجبرتي قد ألقى أضواء ساطعة على البيئة الخاصة والبيئة العلمية التي نشأ فيها عند ترجمته لوالده الشيخ حسن إلا أنه لا يكاد يذكر شيئا عن حياته بعد ذلك ، فالجبرتي يخفى في عجائب الآثار اختفاء يكاد يكون تاما .

وإذا كانت الدلائل تؤكد حرص يونابرتيه وخلفاؤه في الحملة على الاستعانة بالطبقة البورجوازية المصرية فيما يسمى بالديوان الوطني فإنه من البديهي أن يختار عبد الرحمن مضوا في الديوان الذي أنشأه الجنرال مينو .

وقد أورد الدكتور محمد أنيس في كتابه «حقائق عن عبد الرحمن الجبرتي» مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية أن الجبرتي باع منزله في الصناديقية وفي العام التالي استرده وأنه في سنة ١٢٢٢ هـ اشترى منزلا آخر مجاورا للمنزل السابق .

وهذا يؤكد نراء عبد الرحمن نفسه ، وكانت جدة عبد الرحمن أم أبيه « الحاجة مريم » لها شأن كبير في نشأة الشيخ حسن وهي التي أوقفت عليه أوقافا كثيرة والوثائق تذكرها باسم «المصونة الحاجة مريم» ويذكر الجبرتي في ترجمة لوالده : «وتزوج بنت جليبي ابن يوسف المعروف بالخشاب تابع كور محمد وهم بيت مجد وثروة ببولاق» . وقد تزوج عبد الرحمن ثلاث نساء الأولى في سنة ١١٨٢ هـ والثانية عام ١١٩٥ هـ وهي أم «الولد خليل» ثم تزوج السيدة «شوق» وهي ابنة الشيخ نصار نجم .

ونستطيع أن نستخلص من كتابات الجبرتي أنه كان بورجوازي التفكير حيث تظهر اهتماماته بالكتابة عن الطبقة الراقية والأعيان أكثر من الاهتمام بالعامّة والذين لم يغفل في ذكر أحوالهم .

### البورجوازية المصرية في مجال الإدارة :

لم يعرف عن مصر أنها كانت تحظى بأيدٍ مصرية صميمة تعمل في مجال الإدارة ولكن يمكن أن نقول أنه حدث شيء من ذلك عند قدوم الحملة الفرنسية ولكن لم يستمر طويلا عقب خروج الحملة .

ومن هؤلاء السيد محمد كريم هو حاكم الاسكندرية ويرجع بأصله الاجتماعي الى بيئة تجارية حيث كان في أول أمره قبانيا يزن البضائع في حانوت بالشر وعنده خفة في الحركة وتودد في المعاشرة فلم يزل يتقرب الى الناس يحسن الود ويستجلب خاطر حواشي الدولة وغيرهم من تجار المسلمين والنصارى ومن له وجهة وشهرة في أبناء جنسه ، واشتهر ذكره في ثغر الاسكندرية ورشيد وكان نائباً لمراد على الثغور وأصبح نافذ الكلمة ومحمد كريم له قصة مع الاحتلال الفرنسي فقد قاوم الحملة عند مجيئها الى درجة أن بونابرتة أعجب بشجاعته وعينه حاكما على الاسكندرية في عهد الحملة ولكنه لم يستطع مقاومة الفرنسيين ومن ثم ظل يحرض على الثورة ضدهم ويرسل مكاتيبه الى مراد بك يحث على الاجتهاد في حرب الفرنسيين فاشتد غيظ الفرنسيين منه الى أن انتهى الأمر بالقبض عليه وارسل للقاهرة حيث حوكم وطلب اليه أن يفدى نفسه فرفض ومن ثم أعدمه الفرنسيين ، وقد كان له ثروة ضخمة صادرها الفرنسيين .

وهناك محمد المسلماني الذي عينته الحملة الفرنسية بمثابة محافظ للقاهرة يجاور المحافظ الفرنسي لها .

ويمكننا أن نذكر الشيخ احمد العرايشي الذي نال الأغلبية في انتخابه من علماء الأزهر كقاضى قضاء مصر وكان أول قاضى مصرى يولى هذا المنصب بعد أن فر قاضى القضاة التركى عند قدوم الحملة الفرنسية وكان الشيخ العرايشي ضمن أعضاء ديوان بونابرت وله ثروة كبيرة .

ولا يفوتنا ان نذكر الكثير من مناصب شيخ البلد في القرى المصرية كان يسند الى المصريين وهؤلاء كانوا يكونون جزءا من الطبقة البرجوازية المصرية فهؤلاء فعلا بالنسبة لمستوى المعيشة كان يمكن اعتبارهم بورجوازيين بالنسبة لبقية الشعب ، فدخلهم كان لا بأس به كما أنهم كانوا يتمتعون بمركز وظيفي ولهم سلطة قد تكون بابا للرزق في وقت انعدمت فيه قوة السلطة المركزية ، وكان بعض مشايخ البلد المصريين في القرى يقوم بابواء عصابات النهب فتذكر منهم على سبيل المثال شيخ بلد «القرين» المسمى ابو خشبة .

### البورجوازية الادارية والديوان الوطنى :

في ٢٨ ديسمبر سنة ١٧٩٨ م تأسس ديوان جديد لمصر بعد ان تعطل الديوان الوطنى الاول الذى اقامه بونابرت عقب ثورة القاهرة الاولى لمدة شهرين .

وقد عين الفرنسيون لهذا الديوان « ستين نفرا » منهم ١٤ يقال لهم الديوان الخصوصى وهم الذين يحضرون دائما ويقال لهم الديوان الخصوصى أو الديوان الديمومى والباقي بحسب الاقتضاء وتسمية الديمومى مأخوذة من كلمة دائم لانه كان يعتقد دائما وهو يطابق أيضا اسمه بالفرنسية

وقد ضم الديوان العمومى من المصريين ١٤ من العلماء ، ٢٦ من التجار والصناع والأعيان ، أما الديوان الخصوصى فقد كان من ضمن أعضائه خمسة من العلماء هم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد المهدي والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ سليمان الفيومى ومن التجار اثنان هما السيد أحمد المحروفي كبير التجار والسيد أحمد محرم من تجار البن والبنار .

ومن الجدير بالذكر ان بونابرت عند مجيئه اراد التقرب للمصريين ونجده يحاول اشراكهم فى الادارة والحكم ومن ثم يختار عشرة من العلماء ليكونوا بمثابة ديوان وطنى يعاونه فى دائرة الحكم نذكر هؤلاء المشايخ الذين لم يستمروا أكثر من ثلاثة شهور : - (صدر قرار تكوين هذا الديوان فى ١٧٨٨/٧/٢٥) .

كان الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسا للديوان ، والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العرايشى والشيخ يوسف الشبراخيتى والشيخ محمد الداخلى أعضاء ، أما الشيخ محمد المهدي فقد اختبر سكرتيرا عاما لهذا الديوان .

ويمكن اعتبار هؤلاء ضمن أجهزة الحكم والادارة فى ذلك الوقت ومن ثم جمعوا بين بورجوازية التجارة والادارة الى جانب بورجوازياتهم الفكرية نفسها فى وقت انتشر فيه الجهل ولم توجد الاجهزة التعليمية أو القنوات القادرة على تعليم وثقيف الشعب بصفة عامة كما كانت الجماهير تعاني من الفقر الاجتماعى الى جانب الفقر الفكرى .

### أهل الذمة فى مصر كبورجوازية مصرية :

لم تعرف مصر التعصب الدينى وعاش فيها أهل الذمة متآخين مع المسلمين فيها ، وكان الاضطهاد لأهل الذمة يحدث من بعض الأمراء المماليك أو من بين العثمانيين .

ورغم أن نابليون حاول القيام بترقية اجتماعية واعطاء بعض المناصب الادارية لأهل الذمة وتنصيبهم كجباة ضرائب ضد المسلمين الا أن ذلك لم يؤد الى فتنة طائفية لأن عدد من انصاعوا للحملة كان قليلا وكان أكثر من تعاونوا معها من الاروام وأهل الشام وكان عدد من خان القضية من أهل الذمة المصريين قليلا ولقد كان أهل الذمة يعيشون فى بحبوحة من العيش وذوى دخل مرتفع ولكنهم كثيرا ماتعرضوا للمصادرة ونهب أموالهم أسوة بكبار التجار المصريين .

وأهل الذمة كانوا يعملون فى الشؤون المالية فى مصر ومنهم من حاز شهرة عالية وكون ثروة ضخمة وأصبح واقعا وفلا ضمن الطبقة البورجوازية المصرية فى ذلك الوقت ونذكر من هؤلاء المعلم غالى كاتب الألفى بك والذي كان يسكن الجيزة وكانت له ثروة ضخمة وكان له كثير من الاتباع والجواري وتابعان يقومان بتصرف أعماله .

ولقد كان الكثير من أهل الذمة ذوى الدخل المرتفع يملكون أكثر من كبار اليسار

المصريين ونذكر منهم المعلم واصف كبير المباشرين وكان خيرا بشئون ايراد البلاد ومتصرفا ويبيده نسخ من سجلات الروزنامة علما بالكليات والجزئيات ومع ذلك فقد كان أهل الذمة كثيرا ما يتعرضون لمصادرة ونهب أموالهم أيام الحملة الفرنسية وأيام العثمانيين .

وقد نكب كبير الاقباط في عهد حسن باشا القبطان وهو المعلم ابراهيم الجوهري وكان رئيس الكتبة والزعيم المالى للأقباط وقد أدرك من النفوذ والصيت والشهرة مالم يسبقه اليه أحد من أهل الذمة وقد نما ذكره في أيام محمد بك أبو الذهب ، فلما أصبح ابراهيم بك الكبير شيخا على مصر قلده أمور الدولة المالية فكان هو المشار اليه في كل صغيرة وكبيرة حتى دفاتر الروزنامة والميرى وكان جميع الكتبة والصيارف تحت رئاسته وكان سياسيا ذاهية لا يرغب عن باله شيء يداوى كل واحد بما يلقى به ويعاين ويهادى قاطبة الناس وكان يرسل الهدايا الثمينة والشموع الى بيت الأمراء فاذا جاء شهر رمضان حمل الى الكبراء الشموع والأرز والسكر والكساوى وعمرت في أيامه الكنائس والأديرة واقف عليها كثيرا من الأراضي والمرتبات والغلال وقد مات في عام ١٢٠٩ هـ وحزن عليه ابراهيم بك الكبير وخرج الى قصر العيني ليشهد جنازته واسف على فقدته اسفا شديدا .

ونذكر منهم جرجس الجوهري كبير المباشرين عند قدوم الحملة الفرنسية وقد أبقاء نابليون في منصبه ، وقد وصل الى أعلى مراتب النفوذ ولكنه لم يسلم أيضا من تعرضه لمصادرة بعض أمواله على عهد الحملة الفرنسية أيام الغرامة التي فرضها كليبر بعد ثورة القاهرة الثانية .

وبعد ذلك العرض السابق ذكره نود أن نؤكد أن الملكية العقارية كانت عنوانا للشراء بالنسبة لهذه البورجوازية كما أن أيا منهم كان له أكثر من منزل وكانت عملية الانتقال من منزل الى آخر عادة متصلة في نفوس البورجوازية المصرية ، ولقد كان في كل بيت من بيوت الطبقة البورجوازية والاعيان مطبخان أحدهما أسفل الدار أعد لفداء الرجال وضيوهم والثاني أعلى الدار وقد أعد للنساء فكان السماط يوضع ظهر اذا حان الفداء وليلا للعشاء وكان مبدولا للناس يجلس في صدره رب البيت وحوله ضيوفه .

وكان في كل بيت أيضا ثلاثة مدافن أحدها للرجال والثاني للنساء والثالث للجوارى والعبيد .

وكانت الطبقة البورجوازية تشكل طبقة استهلاك ترفهية ملكت العقارات للسكن وبنت القصور .

ولقد كانت الحملة الفرنسية خرابا اقتصاديا على العلماء وغيرهم حيث أن العلماء والمشايع لم يسلموا أثناء الحملة الفرنسية من دفع غرامات فقد فرض على كل شيخ من شيوخ الأزهر جزء من الغرامة التي فرضت على مصر .

لقد كان التجار بمثابة الوعاء الذى يمكن أن تفرخ فيه البورجوازية بلورا تنمو ولكن ظروف مصر الاقتصادية بقدوم الحملة الفرنسية قضى على هذا الأمل ، وحتى أهل الذمة لم يسلموا من اذى الحملة الفرنسية لقد جاء في أحداث ٢ سبتمبر ١٧٩٩ أن كبير الفرنسيين طلب من النصارى القبط مائة وخمسين ألف ريال وكان العثمانيون بعد خروج الفرنسيين أكثر استبدادا

وفسوة «حيث كان جنود العثمانيين ينتشرون بين جمهور الناس وأرباب الحرف منهم فكان أحدهم يقف بـدكان الحيايط أو صاحب مشرب القهوة ويعلق سلاحه ببابه كأنه شريكه في مهنته ومن سماجته أنه كان يحاسبه على ما كسب ويقاسمه » .

لقد كان الحكم العثماني حكما ضعيفا لم يحدث تغييرا جذريا في حياة المجتمع المصرى رغم بقاءه ما يقرب من ثلاثة قرون هذه الحقيقة الى جانب العزلة التى فرضت على المجتمع المصرى سواء من قبل العثمانيين أو بسبب تحول طرق التجارة العالمية عن الشرق الأدنى الى طريق رأس الرجاء الصالح كل ذلك قلل من فرص تراكم رأس المال هذا كله بالإضافة الى الصراع المملوكى سواء فى دائرته الخاصة أو بينه وبين السلطة العثمانية ، لقد كان جنود المماليك ينهبون مصوغات الذهب والفضة من الصاغة ونفائس الأقمشة نهارا جهارا من متاجر خان الخليل والقورية هذا كله الى جانب الاتاوات التى كانت تفرض والضرائب التى لا حصر لها .

ومع اختفاء سلطة القانون التى تجعل رأس المال يطمئن الى الاستثمار ومع ظروف المجتمع المصرى ذاته سواء فى حركته الانتاجية أو تحركاته الآلية داخل عملية الانتاج حيث لم تستخدم الآلة الا نادرا ومن ثم فلا عجب الا نرى بذورا للبرجوازية المصرية على نطاق واسع باستثناء طبقة الأمان وهى طبقة العلماء ، وتكنها فى النهاية ليست طبقة استثمارية فى ظل ظروف دولة علمانية كالتى أنشأها محمد على ، كما ان نظام الاحتكار الذى ابتدعه محمد على كان كافيا بتحطيم فئة التجار التى بدأت تظهر .

ومع كل ذلك فإنه لا يمكننا أن ننكر وجود بورجوازية مصرية كتب عنها الجبرتى بل اننى أعتبر الجبرتى نفسه كان بورجوازيا فى الفكر وفى الثروة .

وان هذه البورجوازية لها سمات خاصة وذاتها الجبرتى وترجم للكثير من عناصرها وساهمت فى الحركة الوطنية ووقفت مع الشعب ضد السلطة الجائرة .